وثيقة العدد

رسالة من الشيخ عدّون
إلى الشيخ إبراهيم بيّوض [رحمهما الله]

الحمد لله وحده

الجزائر 14 جمادى الأولى 1376 ـ 17 ديسمبر 1956

أستاذي العزيز العلاّمة الشّيخ بيوض حفظه الله ورعاه ومن كلّ شر وقاه.

السلام عليكم ورحمة الله.

أستاذي العزيز أنعى إليك نعيًا خاصًّا بقلب دامٍ، وكبد جريح، وصدرٍ يلتهب، وصبر جميل، وقلب مطمئن بذكر الله، مملوء بالرّضى بما قضى وقدَّر، عزيزتي ونور حياتي، التي وافاها أجلها المحتوم ليلة الجمعة الفارطة على الساعة التاسعة وأربعين دقيقة، وهي فاجعة لم أكن أتوقّعها بعد أن زالت عنها أكثرُ الأوجاع التي تشكو منها، وتتوقّع منها الهلاك، والتي أعقبها ضعفٌ ازداد بتوالي الأيام، حتى شلَّ بها كلَّ حركة في الأسبوعين الأخيرين، أو بالأحرى في العشرة الأيام الأخيرة، فكانت لا تستطيع أن تحرّك ولو إصبعًا واحدا فضلا عن أن تقوم بنفسها أو تتناول شيئا. وكنت أحملها للأكل وغيره كما يُحمل الميت، ولقيتُ من ذلك عناء وأي عناء، وكان طبيبها يعزو ذلك إلى تأثير الأدوية ونجاحها، وكنت كلَّ يوم أرجو أن تُبدي حراكا، أو تخطوا نحو الشّفاء، فلم تزدد إلاَّ ضعفًا. وكان الطبيب يزورها إلى محلّها في "ليفي" كلَّ أسبوع، بعد أن كانت تزوره بنفسها إلى عيادته كذلك وفي الأسبوع قبل الأخير استدعيناه قبل موعده بيوم لاشتداد الحالة عليها، ففحصها فلم يجد فيها ما

يُخشى منه، وقلنا له قبل ذلك: إن لم يكن لك رجاءٌ فيها فصرِّحْ لنا بالحقيقة لنذهب بها إلى بلدها فتموتَ بين أولادها وذويها، فقال: لا أجد ما يُخاف منه، فإن ظهر شيء أنبأتُكم عنه، ووصف لها أدوية أخرى، وعاد إليها في الأسبوع الأخير فكان موقفه منها كالسَّابق، غير أنه أمر بأن تُؤخذ لها صورة بالراديو، وحيث أنها لا تستطيع التحرُّك من مكانها أمر بأن يوتى به حيث كانت، وذلك يوم الأربعاء، على أن يأتي صاحب الراديو عشيَّة الخميس، وهو اليوم الذي طرأ فيه للابن بالحاج السفر إلى باريس ليمضي الامتحان (ولا يزال الأمر مكتوما وسيبقى كذلك) صباح الجمعة، فكان عليه أن يقوم بإجراءات السفر اللازمة وهي شاقة وعسيرة وأوجبتُ عليه الحضور للراديو مهما كانت الأحوال ليعينني في حملها ونزع ثيابها فحضر وحضر أصحاب الراديو بعد طول انتظار فقاموا بالمهمَّة حوالي الساعة الرابعة عشية، واستدعى ذلك حمل آلات ضخمة مفكَّكة وركبوها في بيتها حيث تنام، وبعد انقضاء المهمَّة بادر الابن إلى الذهاب لمهمته هو، وودَّع أمَّه، ولم يعلم المسكين أنه الوداع الأخير إلى هذه اللحظة، أي بعد أربعة أيام، ولم تعلم هي كذلك بسفره وبعد خروجهم قمتُ بشؤونها كالعادة، وصليتُ الظهر والعصر، وصلَّت هي بالتكبير طبعًا، وشربت قُوتَها كعادتها في هذا الوقت، فأضجعتها لتستريح مما كانت تعانيه، وهنا أحسستُ منها غلبة الحال وعزوتُ ذلك إلى التعب المؤقَّت، وقد تواعدتُ قبل ذلك مع أصحاب الراديو على أن أذهب إليهم غدًا الجمعة عشيَّة لأخذ الصورة، والرجوع بها إلى الطبيب ليدرس حالتها على ضوئها، وتقدتُهم اثني عشر ألفا واجب الراديو. قلت أضجعتها لتنام وذلك مع غروب الشمس وكلَّمتها وكلَّمتني ومنَّيتُها عاقبة هذا العمل وأنَّ النتيجة ستظهر يوم السبت، ولا شك أنها تكون حسنة، وكانت مترددة، وجلستُ بجانبها إلى المغرب، فقمتُ فصليتها، وبعد قليل زدتُ العشاء، فخرجتُ لأقضي بعض الوقت في

دكَّان أحد الإخوان، وبعد نحو نصف ساعة عدتُ إليها فإذا هي نائمةٌ فجلست بجانبها أطالع وأراجع بعض الحسابات إلى الساعة الثامنة، وحضر العشاء فأكلت قليلا وشربَت وناولتها الدَّواء قبل ذلك ثمَّ صلَّت العشاءين، ثمَّ تلت سورة سبِّح حتى بلغت آخرها، فبقيت تردِّد ﴿إِنَّ هَـذا لَفِي الصُّحُفِ الاولَى﴾ إلى آخر السورة، فأطالت في تكرارها طويلا، فاشتد بها الوجعُ فصارت تنادي: يارب، كعادتها إذا اشتد عليها الحال، فكنت أسكتها وأصبِّرها، وعرضتُ عليها قضاء الحاجة، فقالت: لا، فأسندتها إلى الوسادة وهي في تعبٍ شديد، ثمَّ ازداد لهثها مع إلحاح الوجع، وهنا فقط أحسستُ بالخطورة، فحام حولنا شبحُ الموت الرَّهيب، فكان هذا الإحساس يقوى كلَّما قوي الوجع، إلى أن صار حقيقة واقعيَّة، فأيقنتُ بمصيرها المحتوم لما صار كلامها مغمغما لا يكاد يُفهم، وهنا طمَّنتُ نفسها ومنَّيتها الراحة الدائمة في الجنَّة، والاطمئنان إلى لقاء الله، وملئ قلبها يقينا برضاه، فبدأ الجحوظ في عينيها والبرود في رجليها، وقالت: ما أصعب الموت، وقلت لها: دقائق قلائل ثمَّ تكون الراحة الدائمة، فاعتصمي بربِّك ولا تلقين إلاَّ خيرا ونعيما. ثمَّ عادت إلى ترديد آخر السُّورة بكلام لا يكاد يُفهم، وتذكر الله ورسوله بما لا يكاد يبين، فكانت الخاتمة المحتومة، وكلُّ ذلك في ربع ساعة فاسترجعتُ وتجلَّدتُ وكظمتُ على نفسٍ تكاد تنفجر، وأسلمت أمري إلى الله، واضطجعت بجانبها كالعادة بعد أن نزعتُ عنها الغطاء الغليظ، فكنت على ذلك الصباح لم يغمض لي جفن؛ أسيل الدّمع تارة وأكفكف أخرى، ولم أخبر الأخ عمر النائم بالبيت بجانبنا مع زوجته حتى صلَّينا الصبح، ثمَّ عدتُ إلى الاضطجاع إلى حوالي السابعة والنصف، فأخبرتهم بالفاجعة فكانت الصدمة عليهم عنيفة. ثمَّ بعد التعزية واللَّوم على كتم الخبر إلى الصّبح تفاوضنا في أمر دفنها، وفكَّرنا في نقلها القرارة فرأينا الأمر عسيرًا جدا إن لم

يكن مستحيلا، إذ يقتضي ذلك أن تبق أربع ليال بدون دفن، علاوة على تفتيش الطريق وعلى المصاريف الباهضة التي ننوء بحملها، فقررنا دفنها هنا، فقمنا بإجراءات الدّفن الرّسمية التي عانينا في سبيلها الأمرَّين، بدأناها من الساعة الثامنة فلم تنقض إلاَّ حوالي الثّانية عشرة، على السّرعة الفائقة التي قمنا بها، ولولا عربة الأخ لما استكملناها في يوم كامل، وكان الدّفن بعد الساعة الرابعة عشية في حفل كبير من الإخوان والأصدقاء وكلِّ من سمع بالخبر وأغلبهم لم يسمع به.

هكذا تمت هذه الفاجعة وختمت بها أنفاس نفسٍ عزيزة كانت تملأ حياتي بهجة ونورا، وتحيل داري جنَّة نعيم، وكان حبِّي لها وغرامي بها يمدان جميع أعمالي بالقوة والحياة، وأنَّ قلبي ليعجز عن وصف سعادتي بها وهنائي، وكنت مغمورًا بهذه السّعادة في حِلِّي وترحالي شاعرًا بها تمام الشعور، وأعتبرها من أعظم نعم الله عليَّ، وكنت مغتبطا بهذه النعمة شاكرا الله عليها ما وسعني الشكر، لا يغفل قلبي عن ذكرها ولا لساني عن تلاوة قوله ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ ۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝﴾ وأرثي وأشفق على من حُرم مثل هذه النّعمة. ولم يكن هذا الشّعور وليد فقدانها، كمن يزهد في نعمة تغمره وسعادة تحيط به حتى إذا فقدهما شعر بهما وتحسَّر على فوات الانتفاع بهما، بل كنتُ من مفرقي إلى قدمي شعورًا وإحساسًا بهذه النّعمة وبغيرها من النّعم التي أسبغها الله عليَّ، وأعظمها هذه الحياة التي أحياها في سبيل العلم قضيتُ فيها أكثر عمري وسأقضي فيها إن شاء الله بقيَّته، وكانت في بيت من بيوت الله وفي وطني العزيز، عزيزا في قومي مرضيًّا عنّي من كرامهم، وفي طليعتهم أستاذي العزيز، متمتعًا بالسّعادة الزّوجية، ونجابة الأولاد، والكفاف في العيش، والبعد عمَّا يشين سمعي، ويسخط الله والرّسول، هذا ما أشعر به دائما ويملئ

قلبي بـذكره، وأشكر الله عليه وأستزيده منه، غير أني مع كلّ هـذا أتوقّع لهـذا الصّفو الجميل كدرًا يزيل بهجته، ويمزج هـذه السعادة بشيءٍ من الشقاء، وأخاف أن يكون ممن يقال لهم ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ والأّ فأين الله للمؤمنين؟ وأين امتحانه لعباده؟ وأين قوله: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝﴾ ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ۝﴾ ألى أمثال ذلك من الحديث الشّريف، حتى جاء هذا المرض، وجاء ما يكدّر الصفو الطويل المستمر، وجاء وعدُ الله بالامتحان والابتلاء، فقلتُ سأجتهدُ إلى أن أفوز في الامتحان، فكان طويل الأمد عظيم الوطأة شديد القسوة، فحرمني من أعمالي التي كنتُ أعتبرها أعظم قربة لأتقرّب بها إلى الله، ومن السعادة الزوجية التي أراها أعظم متاعٍ لي في هذه الحياة، وصبرتُ على وطأة الدّهر الذي بات يربني الخطب كيف اعتداؤه، وبتُّ أريه الصّبرَ كيف يكون.

صبرت على ضياع أوقاتي، والفراغ الذي يجب أن يملأ بالصالح المفيد، وعلى عناء التمريض الشّديد الذي لا يعلم ما عانيت في سبيله إلاّ الله، وعلى الخسائر الباهظة في المال، وعلى الغربة الموحشة في أحرج الأوقات وأعسرها، صبرتُ على هذا، وأكثر من هذا، هادئَ النّفس مطمئنَّ القلب محتسبًا أجري عند الله، راجيا حسن العاقبة، منتظرًا الفرج، وانتظارُه عبادة، وقلتُ سيقف الامتحانُ على قساوته عند هذا الحدّ وما خرج منه ناجحًا منتصرًا فاز بثواب الله العاجل والآجل، ولم أكن أتوقّع أن تشتطَّ به القساوة حتى يصل إلى الحد الذي وصل إليه من إطفاء نور حياتي، وكنتُ إذا خطر ببالي هذا الخاطر البعيد وارتعدت فرائضي وأقول: من لي بالكاهل الذي يتحمَّل هذه النكبة؟ والمتن التي تقوى على الاضطلاع بعبئها؟ فلابد من السقوط في الامتحان.. وسرعان ما يزول هذا الخاطر

وأقول: ما كان الله ليصل بي إلى هذا الحدّ من الاختبار، ولا ليردَّ دعوات المسلمين والمسلمات في كلّ جهة وفي كلّ مكان، ولا دعواتي بالخصوص التي لا تفارق قلبي ولساني أينما كنت، سائرًا أو راكعًا أو مصليا أو نائمًا، وكان رجائي في الله قويا حتى كاد يبلغ حدَّ اليقين، وقد بالغتُ حتى أقسمتُ لها ذات مرَّة لتشفينَّ، فقالت: إنّك حانثٌ بحلفك على الغيب، فقلت لها: إنّ لله عبادًا لو أقسموا على الله لأبرَّهم. وبعد هذا كلّه كان وعدُ الله بالابتلاء قاسيًا على غير ما أتوقَّع، وكان صبري عليه قاسيا شديد الوطأة، فطويت صدري على نار على الأحشاء تتقد، وأكظم الزّفرات جهدي حتى أسمع لأسناني صريرًا، فأغالبها أحيانا وتغلبني أخرى، فإذا لم تجد متنفَّسا خرجت شؤونا في العيون، فأحاول كفكفتها بكلّ جهد فتغالبني، وأجد صعوبة عظمى في مواجهة المعزّين، ولا أشقَّ من تعزيتهم، وبالأخص إذا كانت من عزيز أو بالغ في التعزية، وأحسن تعزية أريدها منهم أن يُعفُوني منها، أكون هادئا مطمئنا فإذا واجهني معزٍّ ثارت شجوني وانهمرت دموعي، فأضطر للإعراض عنه وهو الكريم العزيز، وأشدّ ما يثير شجوني تذكُّر الأولاد والعائلة وموقفهم من النّكبة عندما تصدمهم، لطف الله بهم وبي، وألهمهم الصّبر الجميل حتّى يخفّفوا عنّي هذا المصاب، ومن لطف الله تعالى بي وبهم أن كنتُ بعيدًا عنهم، ولا أتصل بهم إلاّ بعد أن يكون المصاب قد خفَّت وطأته، والنكبةُ قد لطَّفتها الأيام، وبعد كل هذا أتلوا قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ فأجدني مطمئن القلب، هادئ النفس، رابط الجأش، راضيا بقضاء الله وقدره، محتسبًا أجري عند الله، طالبًا منه أن يوفيني أجرها بغير حساب، وأعتبر

هــذا أعظم نعمة تنطوي عليها هــذه المصيبة، وأحمــده تعالى وأشكره عليها ، وأراني فائزًا في الامتحان منتصرًا في الابتلاء، ظافرًا برضى الله تعالى.

ولست الآن أهتمُّ بمستقبل حياتي، فقد أسلمتُ نفسي إليه تعالى، وفوّضتُ أمري إليه، فهو حسبي ونعم الوكيل، وأجدني مطمئنًا إلى حُكمه راجيًا منه أن يكفكف دمعتي فيحييني حياة سعيدة طيّبة، أقضي بها بقيّة عمري، رضيتُ بما قسم الله لي وفوّضتُ أمري إلى خالقي، كما أحسن الله فيما مضى كذلك يُحسن فيما بقي.

وإنَّ ربًا كفاكَ بالأمسِ مَا كانَ   سَيكفيكَ في غَدٍ مَا يكُونُ

أستاذي العزيز؛ هــذه بعض شجوني في هــذه الحادثة، بثثتها إليك إنها نفثة مصدور لابد من نفثها ، وليس لي مَن أبثها إليه سواك، وليست شكوى ولا إظهار حزن، إنما أشكو بثّي وحزنيَ إلى الله، كان الله لي ولك ولجميع الإخوان والأصدقاء والمسلمين والمسلمات وليًا ونصيرًا.

كنت مشتغلاً بالمرحومة مدَّة شهرين في أكثر الأوقات، وبالأخص في الأسابيع الثّلاثة الأخيرة، فإني لم أشتغل بغيرها إلاَّ قليلا، لذلك تأخّرتُ عن إتمام مهمَّتي، وإني ملتفتٌ ومتفرّغٌ إليها في هــذين اليومين وفي بضعة أيام أخرى لا تتجاوز أسبوعًا أقضيها هنا وفي البليدة، وأزيد أسبوعا آخر في طريقي من بسكرة إليكم، فأكون معكم في آخر الشهر أو في أوائل الآخر إن شاء الله.

سلامي وتحياتي إلى جميع الأساتذة والتلاميذ وجميع الإخوان والأصدقاء دمتم ودام لكم الهناء.

عــدُّون بن بالحاج

(في هــذه اللحظة اتصلتُ ببرقية من الابن بالحاج من باريس يخبر فيها بنجاحه في الامتحان وتحصيله على الشهادة والحمــد لله وسيصل صباح الأربعاء) .

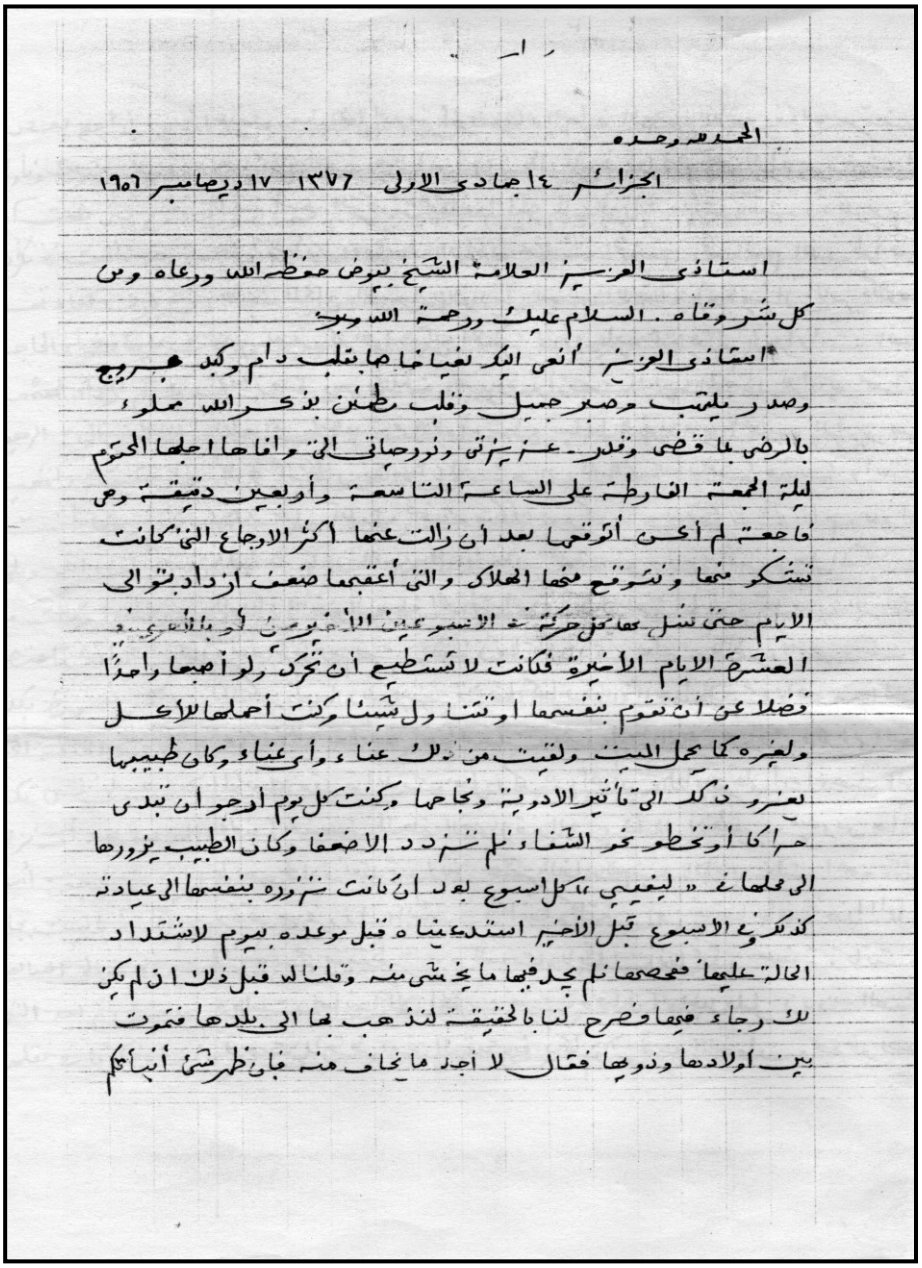

ر ا

الحمد لله وحده

الجزائر ١٤ جمادى الاولى ١٣٧٦ ١٧ ديصامبر ١٩٥٦

استاذي العزيز العلامة الشيخ بيوض حفظه الله ورعاه ومن
كل شر وقاه . السلام عليك ورحمة الله وبركاته
* استاذي العزيز أنعى اليك بعيا ضاجا بقلب دام وكبد جريح
وصدر يلتهب وصبر جميل وقلب مطمئن بذكر الله مملوء
بالرضى بما قضى وقدر . عزيزتي ونور حياتي التي وافاها اجلها المحتوم
ليلة الجمعة الفارطة على الساعة التاسعة وأربعين دقيقة وهي
فاجعة لم أكن أتوقعها بعد أن زالت عنها أكثر الاوجاع التي كانت
تشكو منها ونتوقع منها الهلاك والتي أعقبها ضعف ازداد بتوالي
الايام حتى تسل بها عن حركة في الاسبوعين الاخيرين او بالاحرى في
العشرة الايام الاخيرة فكانت لا تستطيع أن تحرك ولو أصبعا واحدا
فضلا عن أن تقوم بنفسها او تتنا ول شيئا وكنت أحملها للاكل
ولغيره كما يحمل الميت ولقيت من ذلك عناء وأي عناء وكان طبيبها
يعزو ذلك الى تأثير الادوية ونجاحها وكنت كل يوم أرجو أن تبدي
حراكا أو تخطو نحو الشفاء ولم تزدد الا ضعفا وكان الطبيب يزورها
الى محلها في « ليغيبي » كل اسبوع بعد أن كانت تزوره بنفسها الى عيادته
كذلك في الاسبوع قبل الأخير استدعيناه قبل موعده بيوم لاشتداد
الحالة عليها فحصها فلم يجد فيها ما يخشى منه وقلنا له قبل ذلك ان لم يكن
لك رجاء فيها فصرح لنا بالحقيقة لنذهب بها الى بلدها فتموت
بين اولادها وذويها فقال لا أجد ما يخاف منه فاي خطر تشيئ أنباؤكم

صورة الصفحة الأولى من رسالة الشيخ عدُّون إلى الشيخ بيُّوض إثر وفاة زوجته ، وفيها يبث أستاذَه شجونه ، بشعور صادق وصبر عظيم .